والكابتن بلاك المسكين ايضا ! يا لغرابة هذا الكون الرهيب ... فحين حسب انه استرد اسمه على ذلك المنعطف الجنوني خسر ، في لحظة كالبرق ، كل ما تبقى له من ذلك الاسم العريق الذي كان مرهوبا ذات يوم ... ان شفقتي عليه تزداد في الوقت الذي تزداد فيه رغبته بقتلي ... رفعت الاوراق الخضراء جاعلا من اصابع كفي مشطا كبيرا واخذت اقلبها مثلما الفلاحون يفعلون بأكوام السنابل ، وكان يكتسحني شعور أعرفه ينتابني حين احمل بندقية غير محشوة في لحظة تحبل بالخطر . وهمهم ريح وهو يرصد بأذنيه أية حركة يمكن ان تنأم حوالي فنظرت اليه مخلوقا قادرا على ان يعطي دون حدود ودون مقابل ودون كلمة واحدة ، وفي عينيه الواسعتين برق الحل : ليس بوسعنا ان نفعل شيئا الا ان ننتظر نهاية هذه اللعبة ، اخذت احفر بهدوء وهو ينظر الي ، ثم أعدت النقود دون ان أعدها الى كيسها الجلدي . حفرت عميقا في الارض حتى عجزت ، وضعت الكيسين فوق بعضهما ورصفت الحجارة فوقهما وحولهما ثم أعدت التراب ، وفي التراب زرعت من جديد شجيرات الشوك التي اقتلعتها في البدء بعناية ومن جذورها وقست المكان بعيني وخطواتي وتذكرته جيدا ، وعدت الى صهوة ريح فأخذ ينحدر وحده على السفح هادئا ، فيما أخذت العتمة تتسلق السماء وراء الجبال البعيدة . وسميت نفسي « قاسم » ، وكان « ريح » اول من عرف ، ومضينا طوال الليل نسير ونقف ونغفو قليلا ونتحادث ونغني بصوت خفيض ونبحث عما يتعين علينا ان نفعل ، وفي الصباح التالي اتفقنا ان نودع بعضنا ، فليس من الصالح بعد ان نظل معا ، نزلت عن صهوته حين كانت الشمس تشرق ومشطت عرفه باصابعي فنوّح دون ان يفتح فمه واخذ يهز رأسه وينفض عنقه وينقل حوافره وهو على باب قرار صعب ، ثم استدار فخبطت راحتي على مؤخرته ، مضى بطيئا اول الامر وهو يطأطىء رأسه ، ثم انطلق فجأة دون ان يلتفت واخذ يرفّ في ريح الصباح كالراية حتى غاب في الغبش .

نام الكابتن بلاك ملء عينيه تلك الليلة ، كان يصحو احيانا وهو يخشى ان يكون ما حدث مجرد حلم ثم يعود فيغفو دون ان تذوب الابتسامة عن شفتيه الحمراوين ، وكان الميجور ماكلويد يراقبه وهو يخرج من كابوسه الطويل ... ان الميجور ماكلويد يعرف تماما ان الكابتن بلاك سيكون اول من يبكي على عبد الكريم اذا ما شنق ... فقد كانا ، رغم كل شيء ، عائلة واحدة . وطوال شهور مديدة كان عبدالكريم كل شيء في حياة بلاك ، يمثل امامه ليل نهار اليأس والامل والخيبة والانتصار والدين والسداد في آن واحد . كان جزءا من مشاعره واضحى دون ارادته مقياسه للامور والاشياء ، وحتى عيد الميلاد كان بالنسبة للكابتن بلاك مناسبة يقيسها على عبد الكريم ، وهو لن ينسى يوم قال له كئيبا : « بودي لو استطيع ان اتمتع باجازة الميلاد » وصمت قليلا ثم اكمل : « ان اقبض على عبد الكريم قبل العيد » .

ولكن العيد مر ، ذلك العام ، دون ان يقبض عليه ... كان قريبا منه الى حد كان يشمه مثلما تفعل كلاب الاثر ، ورغم ذلك فقد استطاع ان يفر من اصابعه . وشغل الكابتن بلاك شهورا بعد ذلك الحادث وهو يتعقب عبد الكريم ، شهورا ضائعة بلا ادنى ريب ... فها هي الاحداث تقول انه في الوقت الذي كان فيه الكابتن بلاك مشغولا بالبحث عن عبد الكريم في الجنوب كان عبد الكريم يختبىء خلف اسم حسنين ويقطف التبغ بسلام في حقول الحاج عباس في ترشيحا !

ولكن الحاج عباس ، حين استدعي للتحقيق اثر حادث حسنين مع الكابتن بلاك وجابي الضرائب ، لم يكن يعرف شيئا ... كان مثلنا جميعا ضحية رخيصة لذلك الرجل الصامت ، فقد جاء حسنين الى بيته في ترشيحا مشعثا ممزقا منهكا ، قبل نحو عام من الحادث وطلب مثل عشرات من الفلاحين في الموسم ، ان يلتحق بحقول التبغ يقطف